

## القدس منبع الإحساس في الشعر الإسلامي المعاصر

إسماعيل إسماعيلي علوي\*

للقدس مكانة خاصة في قلوب المسلمين وعقولهم. كما أن لها اعتبارا خاصا في وجدانهم وخيالهم لأنها تعني السماء وتعني الأرض وتعني التاريخ وتعني الانتصار والشموخ. وقد عبر الشعراء المسلمون المعاصرون عن هذا في كثير من قصائدهم. ونريد في هذا الموضوع أن نبين أن القدس تمثل بحق منبع الإحساس في الشعر العربي الإسلامي المعاصر. فكيف ذلك؟

لا بد لنا قبل الإجابة أن نشير إلى أنه لا يمكن أن نعرض لكل الشعر الإسلامي المعاصر في هذا البحث ولهذا سنقتصر على بعض النماذج فقط. كما أننا لا يمكن أن نتحدث عن كل ما يتعلق بالقدس في هذا الشعر لأن القدس موضوعات كثيرة وليست موضوعا واحدا. أليست القدس هي المسجد الأقصى و الأرض المغتصبة؟ أليست هي المرأة الثكلى و الطفل المذبوح والشيخ المقهور؟ أليست هي الحجارة و الانتصار للحق؟ أليست هي الحب والإحساس بالإنسانية...؟ ومن هنا نقول ليس هنالك في عصرنا هذا شاعر مسلم لم يتأثر بالقدس سواء بشكل ظاهر أم بشكل خفي لأن هذه المدينة اشتملت على كل ما من شأنه أن يحرك الإحساس ويغذيه وسيكون محور بحثنا هو كيف تجلى هذا الإحساس عند بعض الشعراء المعاصرين. وكيف كانت القدس منبعاً له.

### ١- الإحساس بالإحباط:

إن من أهم ما يلاحظ في هذا الشعر أنه يتضمن إحساسا بالإحباط ويتخلل ذلك لغته وأسلوبه وصوره. فعندما ينظر الشاعر وفي واقع الأمة عامة وفي واقع فلسطين خاصة وفي واقع القدس المعيش بالأخص لا يملك دفعا للإحباط الذي يلم به من جراء ضعف الذي اعترانا ومن جراء ما يراه ويسمعه عن مسرى رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم. ولذا يقول حسن الأمراني في قصيدة "الدره":

يَسْطُرُونَ عَلَى بَابَةِ الْقُدْسِ: دَرَهُ

وردة من دم

إلى أن يقول:

ها أنت يا ولدي تحتمي بجناح أبيك

ونحن هنا نحتمي بك من عجزنا المرّ

من خوفنا المستعر

ومن يأسنا المتطاول دهرأ طويلا

ومن سيفنا المنكسر. [١]

هنالك إذن عجز مر وسيف منكسر ويأس تطاول حتى تولد الإحساس بالإحباط وبالهزيمة. وهذا أمر أبعد الشعراء عن الإحساس بالفخر والاعتزاز فقال عمر بهاء الدين الأميري:

"على مرابع قدس المجد، باركها

وحولها الله، وهي اليوم في الرّبِق

مسرى الرسول وأولى القبلتين بها  
[٢]! واحر قلباه ماذا للفخار بقي

إن الإحساس بهذا الإحباط وبالهزيمة لغطرسة العدو وظلمه وتطاوله على المقدسات  
من جهة ولضعف المسلمين وتخاذلهم وخلافهم من جهة أخرى جعل الشاعر  
كالمرجل لا يعرف طمأنينة. وأنله ذلك والقدس يندسها الأشرار.

يقول عمر بهاء الدين الأميري:

"فالقدسُ نارٌ محاجري ومشاعري

هُو ل يَغُولُ هُنا تِي وحمامُ

هل تطمئنُ بي الصلاةُ، وقبلتي

" الأولى يندسها خني وأثامُ [٣]

ويقول محمد أباد صلاح الدين العكاري :

" فلا صمتٌ وأرض القدس تكلّي  
ولا نومٌ وموطننا مباح." [٤]

ويقول أحمد فرح عقيلان :

أثوما والديار تبيت تبكي لواء الدين في القدس الحرام." [٥]

فالشاعر في قلق دائم ما دامت القدس في يد الأعداء. فلا نوم ولا استقرار ولا راحة  
بال و القدس تنن وتشكو وتبكي ومن هنا تولد الإحساس بالحزن الذي استولى على  
المشاعر.

## ٢- الإحساس بالحزن

كان من الضروري أن نجد مسحة من الحزن في هذا الشعر باعتبار أن ذلك أمرا  
طبيعيا يرافق كل إحساس بالانهزام. ومن هنا فإن المعجم الدلالي عند الشعراء يمتلئ  
بكثير من العبارات والأساليب التي تكشف عن هذا الحزن العميق.

فهذا حسن الأمراني يقول:

يا قدسُ

يا وتري الحزين .." [٦]

كما يقول :

" يا جيرة المسجد الأقصى ولي سبب

ترقرق الحزن في أقداحنا، وسرى

ويقول محمد علي الرباوي :

" ولد زاره الحزن عند الدجى فاشتعل

امتطى فرسا بحوافر تسكب من خلفها الجمر

قيل التقى بشهاب الهدى في شوارع كابول، أو بين

أدغال بيروت، قيل تردى ثياب الردى في ربا القدس.. [٨]

وكثيرة هي النصوص الشعرية التي تعبر عن هذا الحزن وتبين المرارة التي يجدها الشعراء وهم ينظرون إلى مقدساتهم تنتهك حرمتها. وليس أمام الشاعر إلا أن يعبر عن هذا الإحساس المر أمام هول الكارثة التي حلت بالأمة جمعاء. وهذا الحزن أت كذلك من معرفة الشاعر بمواطن الداء ومكامن الهزيمة. وقد وضع الشعراء يدنا على ذلك. ومن بين أسباب هذا الإحساس بالحزن والألم يقول الشاعر:

يا أيها المُسرى به للمسجد الـ أقصى أضاع خلافا مسراكا [٩]

إن الخلاف من أسباب الهزيمة والضياع. وهو عنصر يؤرق الشاعر المسلم الذي أدرك معنى الاتحاد والتآزر بين أفراد الأمة. ومن جملة ما يذكر هذا الإحساس بالحزن كذلك أن كثيرا من أفراد الأمة لا يعرفون حقيقة القدس وهم أبناء جلدتنا:

يقول عمر بهاء الدين الأميري:

بِهِمْ هُزْمْنَا وَمَا زَلْنَا وَمَا اتَعَطَّتْ  
عَمِي النُّفُوسُ ! أَلَا إِنَّ الشَّقِيَّ شَقِي  
فِيَا فحِيعَةً شَعْبِي، مَدَّ كَاهِلُهُ

لِيَصْعَدُوا مِنْهُ ، فِي أَبْنَائِهِ الْعُقُقِ. [١٠]

فمعاناة الشاعر تتضاعف وتزداد عندما يجد عمي النفوس لا تتعظ بما يحدث لهذه الأمة. وهذه من أكبر المحن التي تواجه الشعراء المسلمين في واقعهم المعيش.

وتقول أمينة الريني في هذا المضمرة:

لَكَ اللَّهُ يَا أُمَّةً أَرْهَفْتَهَا \*\*\*\* مَخَازِي بَنِيهَا وَسُودَ الْهَزَائِمِ [١١]

وإذا كان هنالك من المسلمين من لا يتعظ بما يحدث للقدس وللأمة ولا يهمله شتاتها وضعفها فإن العدو يجمع كل قواه لهزمننا وفي ذلك يقول الشاعر مقارنا بين حالنا وبين حال اليهود:

هَمْ حَارِبُونَا بِرَأْيٍ وَاحِدٍ عَدُوٌّ  
قُلٌّ ، وَلَكِنْ مِضَاءٌ ثَابِتٌ النَّسِقِ  
عِلْمًا، وَدَابًّا، وَإِعْدَادًا، وَتَعَبِيَّةً  
وَبَادِرُوا غَزُونَا فِي مَكْرٍ مُسْتَبِقِ  
يَحْدُوهُمْ أَمَلٌ، يَمِضِي بِهِ عَمَلٌ  
وَنَحْنُ، وَاسْوَأَتْنَا ، فِي ضَلَّةِ الْحَمَقِ  
كَثْرٌ ، وَلَكِنْ عَدِيدٌ لَا اعْتِدَادَ بِهِ  
جَمْعٌ ؛ وَلَكِنْ بَدِيدٌ غَيْرٌ مُتَسَقٍ !  
حَارَتْ عِقَانُنَا ، زَاغَتْ قِوَاعُنَا  
أَمَّا الرُّؤُوسُ فَرَأْيٌ غَيْرٌ مُتَفَقِّ . [١٢]

وتقول أمينة المريني:

"فُرَادَى وَصَفِ الْعَدَى فِي اتِّسَاقِ أَحَادٍ لَجْرَعِ كُؤُوسِ الْهَزَائِمِ. [١٣]

بل إن الأمر لا يتعلق بهذا التشتت والكثرة غير المجدية وإنما نجد بعض الحاكمين في انشغال عن المكارم وعن واقع القدس يقول حسن الأمراني:

وحمائم الأقصى تنن ..

وتشتكي ظلم الليالي  
والحاكمون ..  
النائمون

عن المكارم في انشغال "[١٤]"  
ومن هنا يجد الشاعر نفسه كالطائر مهيبض الجناح لا يقوى على تغيير هذا الواقع  
المر فينعكس ذلك على نفسيته وشعوره فيكتب لنا عن الآلام والجراح  
والهوان. فيكون سبيله الرجوع إلى الماضي فيرتمي في أحضانه لأنه يمثل  
الانتصار يقول الأمير ي :

مالي أرى الصخرة الشَّمَاء في كَمَدٍ  
تَذوي وعُهدي بها مرفوعة العنُق!  
ومنبرَ المسجد الأقصى يئنُّ أسي  
قد كان يَحبو الدنَى من طهره العَدَقِ  
واليومَ دنسه فجرٌ ألمَّ به،

شعب اليهود الداعر الفُسق [١٥] من بغي  
فالشاعر وهو يقارن بين حال القدس في أيام عزها في الماضي وما آلت إليه اليوم  
يصيبه ألم ممرض ويحس أن الماضي هو زمن الانتصار والفخر وأن الحاضر هو  
زمن الهزائم والانحمار. وبهذا يتضاعف الإحساس بالانهزام .

ولكن لماذا الرجوع إلى الماضي أ للذكرى فقط أم للبكاء على زمن ولى ؟ إن  
العودة إلى الماضي مفتاح للإحساس بالانتصار لأن الذي حقق العزة هم المسلمون  
عندما تمسكوا بالحق. ويعتبر هذا الرجوع استمدادا للقوة وتجديد للإحساس بالأمل  
في النصر يقول أمجد الطرابلسي:

لنا نفوس أبياتٌ تُهيجُها  
ذكرى جدود كنور الشمس غُرَّان. "[١٦]"  
وعلى هذا الأساس نجد ذكرا كثيرا للأبطال وللمعارك التي كان النصر فيها  
حليفنا. ومن هنا لا نستغرب أن نجد في طيات هذا الشعر إحساسا بالنصر عند ذكر  
الماضي. ولا يتوقف الأمر في هذا الباب بل هنالك دوافع أخرى تجعل الشاعر يحس  
بالانتصار ..

٣- الإحساس بالنصر القريب:

هنالك إحساس مهم يجدر بنا أن نسجله وهو الإحساس بالنصر. فكيف يكون  
الإحساس بالنصر في عمق الإحساس بالإحباط والهزيمة؟  
إذا كان الشعراء قد عبروا عن إحساسهم بالإحباط تجاه الصمت الرهيب إزاء القدس  
وهي تعرض يوميا للتخريب فإنهم لم يفقدوا الأمل في الانتصار وهذا أمر يتلاءم مع  
رؤية المسلم الذي لا يعرف اليأس ولا يقنط من رحمة الله تعالى.

يقول عمر بهاء الدين الأمير ي:  
لا يأسَ فالحربُ أقدارٌ ودائرةٌ  
وإنه طَبَقُ يأتي على طبقِ  
مكبلونَ ولكنَّ في غدٍ نبأ  
يا نجمٌ مزقَ ظلام الليل وانتلق

إلى أن يقول:

والنصرُ بالصبر والإيمان مَعْقَدُهُ

والمجدُ بالعزم و الإعداد والسَّبَقِ: "[١٧]"

وإذا كانت هنالك عناصر قوية وكثيرة تجذب الشاعر إلى الإحساس بالإحباط، فإن في هذا الواقع ما يدفع نحو الأمل إنهم الأطفال بأحجارهم والشباب بجهادهم والشيوخ بهتافهم وتكبيرهم والنساء بزغاريدهن والمساجد بأذانها وغير ذلك مما ينفث قوة خاصة في كل أبي.

وهنالك أشعار كثيرة جاءت في هذا الخضم لا يتسع المقام لذكرها وكلها أمل واستشراف للمستقبل الزاهر والنصر القريب. وهنالك احساسات متعددة تتجلى في الشعر الإسلامي المعاصر لا يمكننا أن نعددها كلها هنا.

ولكن عندما نتساءل من أين جاء هذا الإحساس العميق بالانتصار رغم وجود هذا الواقع المر؟ فلنقرأ مع الشاعر حسن الأمrani:

ليست القدس قطعة من تراب

بل هي الوحي منزل تنزيلا. "[١٨]"

ونقرأ كذلك لأحمد فرح عقيلان:

في قدسنا تاريخنا وتراثنا

ومسارح العلياء والأمجاد

ما بين أندلس إلى بغداد. "[١٩]"

وحضارة غراء خَفَقُ لوائها

ومن هنا يظهر لنا جليا أن القدس منبع الإحساس في الشعر الإسلامي المعاصر. لأنها منبع لا ينضب معينه وبقدر وجود أسباب الإحساس بالهزيمة هنالك إحساس بالنصر القريب بل إن هذا الإحساس أقوى وأمتن في رؤية الشاعر وفي صور شعره ولغته وإيقاعه.

\* ناقد و أديب من المغرب

- [١] حسن الأمrani "شرق القدس .. غرب يافا" منشورات جمعية منتدى الحوار . ط١ . ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م . ص ٧٢
- [٢] عمر بهاء الدين الأميري "صفحات ونفحات خواطر.. وذكريات ..وتجليات شعر وفكر مؤسسة الشرق للعلاقات العامة للنشر والترجمة. ط١ . ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م . ص ٦٠
- [٣] نفسه ص ٦١
- [٤] محمد صلاح الدين العكاري " صدى الأعماق " دار الخاني للنشر والتوزيع . المملكة العربية السعودية . ط١ . ١٤١١هـ
- [٥] أحمد فرح عقيلان " جرح الإباء " منشورات نادي المدينة المنورة. دار الأصفهاني للطباعة بجدة. بدن تاريخ ص ٧٠
- [٦] حسن الأمrani "شرق القدس .. غرب يافا" ص ٢٥
- [٧] حسن الأمrani انظر مجلة المشكاة ديوان الانتفاضة العدد ٣٤-٣٥ . ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م . ص ١٩٤
- [٨] محمد علي الرباوي " الولد المر (شعر) منشورات المشكاة . المطبعة المركزية – وجدة . ١٩٨٩ . ص ٤٥
- [٩] صابر عبد الدايم في مدائن الفجر: دار البشير للنشر والتوزيع ط١٥، ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م ص ٤٨ :
- [١٠] عمر بهاء الدين الأميري "صفحات ونفحات ..." ص ٦١
- [١١] أمينة المريني "ورود من زناتة فتاة المحيط " دار السلمي الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع. ط١ . ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م
- [١٢] عمر بهاء الدين الأميري "صفحات ونفحات.. الصفحتان ٦٥-٦٦
- [١٣] أمينة المريني "ورود من زناتة" ص ٦٠
- [١٤] حسن الأمrani "شرق القدس .. غرب يافا" ص ٤٠
- [١٥] عمر بهاء الدين الأميري " صفحات ونفحات .." ص ٦٤
- [١٦] انظر شعر الجهاد في العصر الحديث. د. عبد القدوس أبو صالح . د. محمد رجب البيومي. الرياض ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م ص ٤٠٣
- [١٧] عمر بهاء الدين الأميري " صفحات ونفحات .." ص ٦٧
- [١٨] حسن الأمrani شرق القدس .. غرب يافا ص ٢٠
- [١٩] أحمد فرح عقيلان: "جرح الإباء" ص ٩٥